مدخل إلى الأدب الإسلامي

جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ

كتاب الأمة

سلسلة فصلية، تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، في دولة قطر.

صدر منها:

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية "طبعة ثالثة"
  للشيخ محمد الغزالي
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف "طبعة ثالثة"
  الدكتور يوسف القرضاوي
- العسكرية العربية الإسلامية "طبعة ثالثة"
  اللواء الركن محمود شيت خطاب
- حول إعادة تشكيل العقل المسلم "طبعة ثالثة"
  الدكتور عماد الدين خليل
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري "طبعة ثالثة"
  الدكتور محمود حمدي زقزوق
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري "طبعة ثالثة"
  الدكتور محسن عبد الحميد
- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين "طبعة ثالثة" "طبعة إنجليزية"
  الدكتور نبيل صبحي الطويل
- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي "طبعة ثانية"
  عمر عبيد حسنة
- أدب الاختلاف في الإسلام "طبعة ثانية"
  الدكتور جابر فياض العلواني
- التراث والمعاصرة "طبعة ثانية"
  الدكتور أكرم ضياء العمري
- مشكلات الشباب: الحلول المطروحة والحل الإسلامي "طبعة ثانية"
  الدكتور عباس محجوب
- المسلمون في السنغال - معالم الحاضر وآفاق المستقبل "طبعة أولى"
  عبد القادر محمد سيلا
- البنوك الإسلامية "طبعة أولى"
  الدكتور جمال الدين عطية

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل
إلى
الأدب الإسلامي

الدكتور نجيب الكيلاني

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة
لرئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية
بدولة قطر

ماينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها.

تقديم

بقلم: عمر عبيد حسنة

■■ إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألاَّ إله إلاّ الله ، الذي خلق الإنسان ، علمه البيان ، وأوجب القراءة والتعلم ، واعتبر ذلك مفتاحاً للدين منذ اللحظات الأولى لبدء الوحي والخطوات الأولىٰ لمسيرة النبوة . قال تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن عَلَق . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَم . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَم يَعْلَم ﴾ وجعل معجزة الإسلام كتاباً خالداً ، مجرداً عن حدود الزمان والمكان ، وتحديه بياناً ، ومهمة رسوله ﷺ الرئيسة ، البلاغ المبين ، قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغ الْمُبِين ﴾ ، وناط فوز المسلم ونجاته من المسؤولية

وأداءه لأمانة التكليف ، بالسير على قدم النبوة في البلاغ والدعوة إلى الله بكل ما تقتضيه عملية البلاغ المبين ، من وسائل وآفاق وأبعاد وحكمة وحسن أداء ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَد وَّلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحدًا . إِلاَّ بَلاَغا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ . . . ﴾ . وجعل القول السديد صنو التقوىٰ وثمرة لها ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا . . . ﴾ فكانت الكلمة القرآنية ركيزة جهاد الأمة المسلمة . والقرآن منهل الأدب الخالد ، ومصدر كل عطاء ثقافي وحضاري ، من خلال آياته نشأت أمة الإسلام ، وتحددت معالم عقيدتها وعبادتها وأخلاقها وتصورها عن الحياة والأحياء ، ومنه تشكلت ثقافتها وبُنِيَ ذوقها العام ، فكان القرآن درع الأمة المسلمة في الصمود ، وميثاقها للنهوض . وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ أُوتي جوامع الكلم فكان في الذروة من العرب فصاحة وبلاغة وبياناً ، بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة ونصح الأمة ، فهو المثل الكامل للتأسي والاقتداء ﴿ لَقَد كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَة لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْم الآخر ﴾ وبعد :

فهذا الكتاب الرابع عشر ـ مدخل إلى الأدب الإسلامي ـ للدكتور نجيب الكيلاني . نقدمه في سلسلة « كتاب الأمة » التي تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ، مساهمة منها في تحقيق الوعي الحضاري والتحصين الثقافي ، وفك قيود التحكم التي وضعتها الأفكار والمعاهد والمؤسسات الأجنبية على حياتنا ، حتى يسترد مسلم اليوم موقعه في الشهادة والقيادة ، ويستأنف دوره الذي ناطه الله به ، مستثمراً إمكاناته الروحية والذهنية والمادية كلها ، مبدعاً وسائل وأساليب في الدعوة إلى الله ، والعمل الإسلامي ، في مستوى مسؤوليته الإسلامية ، إلى جانب الفهم والإدراك لمتغيرات العصر من حوله ، متقدماً إلى الإنسانية بأنموذج الإنسان المسلم الجديد الذي يثير الاقتداء ويغري بالاتباع .

ولا شك أن وسائل الدعوة إلى الله وأساليبها ، وميادين العمل الإسلامي ومواقعه المؤثرة والفاعلة ، أوسع من أن تُحْصَرَ بعصر ، أو تَجْمُدَ على شكل ، أو تُحاصَرَ من قبل طاغية أو عدو أو كافر . إذا استشعر المسلم مسؤوليته واستعاد فاعليته ، وأخلص النية ، وتلمس الصواب ، والتزم الحكمة والبصيرة التي أمره الله بها في البلاغ المبين . وإنما تجيء محاصرتها من المسلمين أنفسهم .

ولعل ميدان الكلمة ـ مكتوبة أو مقروءة أو مسموعة ، وفعلها وأثرها ـ كان ولا يزال من أهم ميادين الحوار والصراع والمواجهة بين الخير والشر ، والحق والباطل . وقد برز هذا المعنىٰ أكثر فأكثر في العصر الحاضر بعد أن سكت صوت الأسلحة بسبب من التوازن الدولي ، وأخذت ساحات المواجهة والصراع والحوار الحضاري والثقافي ألواناً جديدة ، إنها الحروب الحديثة ، حروب المعلومات والإعلام ، وصراع المبادىء والعقائد والمذاهب المعاصرة والدعايات السياسية والمذهبية ، التي تغرق العالم بسيلها الجارف ، وتحاول إعادة تشكيل عقله ، وزرع عواطفه ، وتحديد استجاباته ، والتحكم بنزوعه وسلوكه ابتداءً ، إلى درجة أصبحت معها الدول والشعوب المتخلفة في هذا الميدان ، تعيش وكأنها في معسكرات الأسر والاعتقال الفكري . إنه عصر الجبر والتسيير الإعلامي ، والتحكم الثقافي والسياسي ، الذي أصبح يملكنا ويقتحم علينا بيوتنا ويطاردنا في أخص خصائصنا ويخطف منا أبناءنا ونساءنا .

لقد ولّىٰ الزمان الذي كان فيه بناء الأسوار العظيمة ، وإقامة الحدود وحراستها يحولان دون وصول ما لا نريد من المذاهب ، والكتب والأفكار والأشخاص ، في عصر الدولة الإعلامية العالمية . ووسائل الإعلام الفتاكة والمتنوعة ، التي لم تعد تنتظر الإنسان يسعىٰ إليها وإنما هي التي تسعى إليه

وتطارده وتلاحقه وتشاركه طعامه وشرابه ولا تنفك ملازمة له حتى يستسلم إلى النوم .

فليست المشكلة اليوم ، في أن نفتح أبوابنا ونوافذنا ؛ أو نغلقها أمام المذاهب والمعلومات والدراسات الثقافية ، والفنون الأدبية المختلفة ، والقضايا العالمية المطروحة ، وإنما المشكلة الحقيقية ، هي في أن نمتلك قوة الإرادة وبصيرة الاختيار ، وانضباط المقياس ، فيما نأخذ وما ندع ، ونمتلك القدرة على تقديم البديل ، الذي يرقىٰ إلى المستوى العالمي ، ونكون قادرين على إثبات وجودنا في ساحات الامتحان الحقيقي .

لقد أصبح من الأهمية بمكان أن ندرك أن الصراع بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة أبدي ، وأن المعارك الفكرية بأساليبها الفنية المتعددة هي الأخطر في حياة الأمم وبنائها الحضاري ، وأن الساحة الفكرية هي الميدان الحقيقي للمعركة ، وأن الله سبحانه وتعالى جعل سلاح المسلم الدائب هو المجاهدة بالقرآن . قال تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَجَاهِدهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ ونحن المسلمين لسنا بحاجة إلى أدلة وشواهد على ذلك . وقد ولدت أمتنا ، وحملت رسالتها إلى الإنسانية ، من خلال هذا الكتاب كما أسلفنا ، وابتدأت الخطوة الإسلامية الأولى من غار حراء وسلاحها الأوحد إلى العالم ﴿ اقرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَق ﴾ وتجاوزت مبادىء الإسلام البلاد المفتوحة ، لتعم العالم بقوة نفاذها وحسن إبلاغها ، فالمعركة في حقيقتها فكرية ، والمشكلة في جذورها ثقافية ، والصراع عقائدي ، وإن اتخذ أشكالاً شتىٰ ، لقد أصبح سلاح الكلمة اليوم أقوى تأثيراً وأكثر نفاذاً ، وتطور فن الكتابة والإعلام ، إلى درجة يوهم معها ، أن الحق باطل والباطل حق ـ وإنَّ من البيان لسحراً ـ وأصبحت بلاد الدنيا ضواحي لدولة الأقوياء ، وبدأ عصر الدولة الإعلامية العالمية سواء اعترفت بذلك الأنظمة السياسية

الإقليمية أو تجاهلته ، ولم تعد قضية العزلة والنزوع إلى الفردية قضية اختيارية .

ومن هنا نقـــول : بأن الجهود الفردية مهما بلغت سوف تبقى جهداً ضائعاً محدود الأثر ، والرؤية الفردية مهما شملت ، هي رؤية حسيرة ، وإمكانات الأفراد مهما بلغت ، سوف تبقىٰ دون سوية الإحاطة بالقضايا والمشكلات كلها ، والقدرة على مواجهتها ، واختيار الوسيلة الملائمة لذلك ، هذا إلى جانب العجز عن تصنيف تلك المشكلات وترتيب الأولويات المطلوبة في المعالجة ، والقصور عن المشاركة في القضايا العالمية التي باتت مفروضة ، ولا بد من رأي فيها وموقف تجاهها .

إن الكثير من قضايانا الفكرية ومشكلاتنا الثقافية على الساحة الإسلامية ما تزال تحكمها روح العفوية وتتحكم فيها الرؤىٰ الفردية .

ونحن بهذا لا نريد أن نغمط الأفراد حقهم ، ولا أن نقلل من شأن ما قدموا ، خاصة أُولٰئك الذين اتسمت مساهماتهم الفكرية والأدبية بالصبغة العالمية ، وإنما نرى المطلوب بإلحاح هو الانتقال إلى الرؤية الجماعية ووضع (استراتيجية) خطة ثقافية يأخذ كل منا فيها بطرف من خلال روح فريق العمل الجماعي ، وندرك جميعاً انتهاء عصر الرجل الملحمة الذي يمكن أن يحسن كل شيء ، فيكتب في الشعر والقصة والمسرحية والفكر والتاريخ والفقه والتفسير . . . إلخ . حتى لا يضرب كل منا في اتجاه فتتبعثر جهودنا ، وحتى لا نكرر أنفسنا ، فيضيع ويتبدد إنتاجنا ، وتستغرقنا القضايا المحلية ، والنظرات الجزئية ، وتحول دون مشاركتنا ومساهمتنا في مرحلة الأفكار والآداب العالمية ، الأمر الذي يتسق مع رسالة الإسلام العالمية ووظيفة المسلم في البلاغ المبين .

لقد أصبح من الضرورة بمكان وضع خطة واضحة ودقيقة من أجل مراعاة مبدأ تراكم المعرفة في الإنتاج الفكري والأدبي الإسلامي الجديد ، حفاظاً على الطاقات ، ورعاية للقابليات ورغبة في الوصول إلى نتائج تخدم قضية (الأدب الإسلامي) ، كما لا بد أن تقوم دراسات ناقدة ، تجيب عن مجموعة أسئلة ، تحدد أهداف العمل وغاياته ، والحدود والشروط والوسائل اللازمة لترشيده ، وتوجيهه الوجهة السليمة ، وتجلي السلبيات والإيجابيات ، وتفك قيود التحكم الثقافي ، الذي يشل ويعطل فاعلية المسلمين اليوم .

إن غياب حركة النقد للأعمال الأدبية الإسلامية ـ إلى جانب أنه يساهم بشكل سلبي بمحاصرة الأعمال الأدبية وقبرها ـ يؤدي إلى فوضى فكرية تتمثل في ضياع مقاييس التقويم ، وكثرة التكرار في الأشكال والمضامين ، وغلبة السطو الأدبي ، والنقاد والدارسون مسؤولون عن تقويم الأدب الإسلامي ، وإبراز عناصره ، وتقدير أهميته ، في صياغة الشخصية المسلمة ، وبناء الذوق السليم ، والناقد والأديب شريكان في عملية البناء هذه .

ومن البشائر التي طالما هفت إليها قلوبنا الإعلان عن قيام رابطة للأدب الإسلامي ، الأمر الذي يضع الأدباء الإسلاميين أمام مسؤولياتهم في خدمة الإسلام وإبلاغ رسالته ـ من خلال الصورة الجمالية المؤثرة ، والأساليب الفنية المتنوعة ـ وحفظ أمانة الكلمة التي تستمد جوهرها من مشكاة الوحي وهدي النبوة .

ورابطة الأدب الإسلامي إنما ولدت ـ في تقديرنا ـ كثمرة للصحوة الإسلامية ، وحركة الوعي الإسلامي المعاصرة ، التي استطاعت أن تحيي الأصول الإسلامية في نفوس المسلمين وتجدد عملية الانتماء إلى الإسلام ، والالتزام والاستعلاء به ، وقدرته على استيعاب الحياة المتجددة ، إلى

جانب ما قدمته من الاستشعار المبكر ، والقراءة الواعية والدقيقة لمجموعة من المشكلات الثقافية ، ومعابر الغزو الثقافي ، وتنبيه الأمة إلى مواطن الخطر . والحقيقة التي لا بد من الاعتراف بها هنا : أن الصحوة الإسلامية لم تعط قضية الأدب الإسلامي القدر المطلوب من الاهتمام وقد لا تكون قدرت كما ينبغي دور الأدب في عملية البلاغ المبين ، وتأثيره في صياغة الوجدان ، وتشكيل الأمة الثقافي ، وبناء ذوقها الاجتماعي المشترك .

إن إقبال الجماهير على الفنون الحديثة ، من القصة والأقصوصة والمسرحية ، وغير ذلك من الفنون ، يجب أن يفتح عيوننا على هذا السلاح الخطير ، الذي يتسلح به الشر ، على أرض الله الواسعة ، وقد لا نكون مغالين إذا قلنا : بأن القصة والمسرح كان لهما النصيب الأوفر في تشكيل الرؤية العقائدية وإقناع الناس بها لإحدى الدول الكبرى التي تحاول أن تسيطر عقائدياً على العالم اليوم .

والخطورة التي يمكن أن تحاصر الرابطة ، وتحيط بها ، هي وقوعها ضحية التحزب لأشخاصها ، وإعجابها بنفسها وإنتاجها ، وعدم قدرتها على استيعاب العطاءات المتعددة ، وتوسيع دائرة المشاركة ، في الإنتاج الأدبي ، أو وقوعها في أسر الأشكال والمؤسسات الرسمية ، التي لها ارتباطاتها وظروفها وسياساتها الخاصة بها .

وفي اعتقادنا أنه لا بد لمسيرة الأدب الإسلامي المعاصرة ، من الخروج من دائرة التحكم ، ومواقع الأدب الدفاعي ، والتطلع إلى الآفاق المستقبلية ، ومواجهة المشكلات المستجدة ، والتحديات القائمة ، والانطلاق إلى البعد العالمي ، والمشاركة في قضايا ومشكلات الإنسان

وحمل هموم الجماهير المسلمة ، بشكل خاص ، وهموم الإنسانية بشكل عام ، والانحياز إلى جانب المستضعفين ، وتحصين الناس دون مهادنة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي .

ذلك أن التمركز في مواقع الأدب الدفاعي ، والاقتصار في الجهد الكبير على مواجهة الأدب المنحل وردّ شبهاته ، قد ينتهي بنا إلى نتائج سلبية ، تجعل من شُبَه أعداء الإسلام والمشكلات التي يثيرونها ، القضية والمساحة التي يُحكم على الأدب الإسلامي بعدم تجاوزها ، وفي الأمر ما فيه من تحكم أعداء الإسلام في الساحة الفكرية والأدبية الإسلامية ، ومحاصرة الجهد والنشاط الفكري والأدبي عند المسلمين بشكل عام ، وتحديد ساحته ومجاله ابتداءً . هذا من جانب ومن جانب آخر قد يؤدي الأمر بنا ـ دون قصد منا ـ إلى تكبير الخصوم وعملقتهم وإذاعة شهرتهم وإعطائهم من الحجم أكثر مما يستحقون .

وقد يكون من المفيد الاعتراف في هذا المجال : أن الفكر الإسلامي ـ والأدب الإسلامي جزء منه ـ ما يزال يتحرك على الأرض نفسها ، التي تحرك عليها أديب الإسلام والعربية ، مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ، وما تزال القضايا التي أثارها طه حسين ، وسلامة موسى ، وغيرهم خلال النصف الأول من القرن العشرين ، هي المحور لمعظم الكتابات والدراسات ، على الرغم مما استجد من قضايا ومشكلات حتى في مستوى الساحة الأدبية نفسها هذا إضافة إلى الغياب الكامل لأدب الطفل ، الذي أصبحت له مؤسساته ودورياته ومتخصصوه على المستوى العالمي ، بينما لا يزال عندنا يتعثر ، ويفتقر إلى التجارب الجادة . وأمر آخر :

فمنذ الكتابات التمهيدية الأولى ، التي بدأها ونبه إليها فضيلة الشيخ أبو الحسن الندوي ، حين اختير عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق

حيث دعا إلى إقامة أدب إسلامي ، ثم جاءت كتابات الأستاذ سيد قطب رحمه الله في الدعوة إلى أدب إسلامي متميز ، وتلاه الأستاذ محمد قطب في كتابه « منهج الفن الإسلامي » . ثم كتاب الدكتور نجيب الكيلاني في « الإسلامية والمذاهب الأدبية » وجاءت بعد ذلك خطوة الدكتور عماد الدين خليل الرائدة في هذا الطريق ، في كتابه « النقد الإسلامي المعاصر » والحديث لا ينقطع ، عن أصول وطريقة الكتابة الفنية الإسلامية وهي ما تـزال أطروحات عامة ـ إلى حدٍ بعيد ـ لم تنعكس بالقدر المطلوب في صورة نماذج مكتوبة ، بأقلام إسلامية واعية ، وعارفة بأصول الصنعة الفنية .

المشكلة في رأينا لم تعد مشكلة حوار وجدل ، حول التنظير بالدرجة الأولى ، ولكنها في الحقيقة مشكلة ممارسة وإنتاج وإبداع ، وعبر التجارب يتبلور وجه الحق والصدق ، فلا قيمة للجدل دون تقديم النماذج المعبرة عن نظرية الأدب الإسلامي ، مدعومة بالنقد الذي يعرف كيف يرعىٰ القابليات ، ويكشف العثرات ، ويمهد لأدب إسلامي حقيقي ، ذي صفات مميزة .

ولا شك أن الطبيب الأديب الدكتور نجيب الكيلاني ، لم ينطلق في كتابه هذا « مدخل إلى الأدب الإسلامي » من فراغ . بعيداً عن المعاناة والتجربة ، وتقديم النماذج الأدبية ، حيث يعتبر كتابه « الإسلامية والمذاهب الأدبية » من بواكير هذا الاتجاه ، إلى جانب رواياته التي قدمها كأنموذج للأدب الإسلامي (ليالي تركستان ، عمالقة الشمال ، عذراء جاكرتا ، عمر يظهر في القدس ، رحلة إلى الله . . .) والتي قدمت للجيل المسلم زاداً ، في وقت كان أحوج ما يكون إليه ، واستطاعت أن تنقل هموم المسلمين ومعاناتهم ، على أكثر من موقع في خارطة العالم ، بأسلوب أدبي أخّاذ ، أمكنه المرور على الرغم من الحراسات والرقابات الرسمية المفروضة .

من هنـا نستطيع أن نقـــول : بأن هذا الكتاب يأتي مساهمة طيبة ، في بناء التكامل المراد ، لسلسلة « كتاب الأمـة » كما أنه يشكل لبنة أساسية ، في بناء منهج الأدب الإسلامي المرتقب ، واستكمال مفاهيمه وتحديد قسماته وبلورة مصطلحاته ، ورسم بعض الآفاق والأبعاد ، التي يمكن أن يرتادها الأدباء الإسلاميون ، من حيث الأشكال الفنية ، بشرط أن لا تخرج هذه الأشكال عن الالتزام بالقيم الإسلامية الثابتة ؛ لأن الانفلات من القيم وعدم الالتزام بها يؤدي إلى الهيام في كل واد ويفتح سبل الغواية أمام الجماهير ويغري بها .

فالقرآن الكريم ـ الذي يعتبر منهل الأدب الخالد للأدباء الإسلاميين ـ استخدم القصة والحوار ، والمثل ، والمواقف الخطابية ، ودعا إلى المباهلة ، ووظف الحدث التاريخي ، واعتمد الجدل الفكري ، وأسلوب المواجهة ، والتقرير المباشر ، والوعظ المؤثر ، في سبيل تحقيق أغراضه في هداية الإنسان ، وتوجيهه صوب الخالق ، فالأشكال متسعة متطورة ، بشرط الحفاظ على القيم الثابتة . . والله نسأل أن يلهمنا رشدنا ويهدينا إلى القول الطيب والعمل المرفوع إنه نعم المسؤول . ■■

مقـــــدمـــة

■■ إن التصور البشري للحضارة يرتبط بعديد من العناصر التي لا بد من تآلفها وتفاعلها لكي ينبثق عنها ذلك الشيء الروحي والمادي وأعني به الحضارة ، ومن أهم عناصرها العقيدة والعلم والتشريع والسلوك الراقي والفنون والآداب ، وقيم الخير والحق والجمال والحرية وغيرها ، ولقد سادت حضارات في التاريخ على اختلاف مراحله ، ثم بادت ، ولقد كان عطاء هذه الحضارات متفاوتا ، وكانت إحداها تركز على عنصر من العناصر ، أو جانب من الجوانب أكثر من غيره ، بعضها عني بالجانب المادي أكثر من الجانب الروحي ، وبعضها الآخر أعطى النواحي الروحية العناية الأكبر ، بصرف النظر عما شاب هذا الجانب أو ذاك من تصورات خاطئة أو مبتورة أو مشوهة ، ولعل تلك السلبيات هي التي شكلت بذور الفناء والتلاشي في الحضارة .

الحضارة إذن في صميمها ترمز إلى القوة الفعالة في صنع التكامل البشري والرخاء والسعادة والتقدم لبني الإنسان ، ومن ثم كانت لهذه الحضارات الغلبة والمنعة ، وتحقق لها النفوذ والسيطرة ، مما جعلها مثلاً يحتذى .

ونحن في واقع الأمر ـ برغم اندثار هذه الحضارات القديمة ـ نجد لها صدى في الفكر المعاصر ، وفي أصول المدنية الحديثة ، سواء خفت هذا الصدى أو ارتفعت نبرته ، فشد إليه الأسماع .

وتقف الحضارة الإسلامية فريدة في طابعها وتأثيرها ومنابعها ، ونحن لا نبالغ أو نلقي القول على عواهنه ، إذا قررنا أن الحضارة الإسلامية لا تموت ،لأن خلودها مرتبط بالروح التي تسري في أنسجتها وخلاياها وشراييتها ألا وهي روح القرآن كلمة الله الخالدة ، وإذا كانت الحضارة الإسلامية تخضع في بعض الفترات التاريخية لعوامل الضعف والوهن والكمون ، فإن ذلك لا يعني فناءها أو انتهاء دورها الخالد ، والحقيقة المؤكدة أنها « فاعلة » دائمًا ، ومؤثرة في كل زمان ومكان ، وحينما ذكر المفكر عباس محمود العقاد رحمه الله أن في الإسلام قوة غالبة وقوة صامدة ، فقد كان يعني بالقوة الغالبة فترات الغلبة والمد والهيمنة للحضارة الإسلامية ، وكان يعني بالقوة الصامدة تلك القوة السحرية التي تعمل عملها في زمن الضعف والوهن في الأمة الإسلامية . وضرب مثلاً لذلك الصمود استمرار انتشار الإسلام ، وقيام أكبر دولتين إسلاميتين في تلك الفترة وهما أندونيسيا وباكستان[1] .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الأدب كان عنصرًا من عناصر هذه الحضارة الإسلامية المتوازنة الخالدة ، التي تمتد أسبابها إلى السماء ، وفق تصورات واضحة صحيحة ، ولم يكن من باب المصادفة أن يكون

---

(١) انظر كتاب « الإسلام في القرن العشرين » ـ عباس محمود العقاد .

فقهاء الإسلام وفلاسفته وعلماؤه وقواده من أكثر الناس اهتمامًا وممارسة لفن الأدب شعرًا ونثرًا ، نرى ذلك واضحاً عند ابن سينا والشافعي وابن المقفع والجاحظ وغيرهم من أعلام الفكر المسلمين عربا وعجمًا ، قديمًا وحديثًا .

ولم يشغل الأقدمون أنفسهم كثيرًا بفلسفة الأدب وتعريفه ومفهومه ، ولقد حفل نخبة ضئيلة منهم بوضع بعض التعريفات الموجزة للأدب ، وخاصة الشعر ، ومن العجيب أن هذه النظرات ـ ولا أقول التعريفات ـ ضمت بصفة عامة ما جال وصال فيه النقاد ومؤرخو الأدب المحدثين ، ولقد وجدنا فئة منهم تهتم بنفعية الأدب أكثر من اهتمامها بمؤثراته الأخرى ، بينما نجد فئة ثانية تركز أساساً على النواحي الجمالية والتأثيرية ، في حين أن فئة ثالثة جمعت بين المنفعة والجمالية ، وهي المدرسة الوسط التي كانت لها الغلبة في الأدب العربي القديم ، وسواء أسادت هذه الموجة أم تلك ، فإن حركات التجديد لم تتوقف ، ولقد تناولت حركات التجديد الأسلوب ، فنجد كاتباً كالجاحظ يتخذ لنفسه منهجاً وسمتا معينا في كتاباته المميزة الفريدة ، وفي موضوعاته المبتكرة ، التي فتحت آفاقاً جديدة في تصوير النماذج والنفسيات الإنسانية ، وأبرزت بكفاءة عدداً من الشخصيات النمطية الباقية أبد الدهر كالبخلاء وغيرهم ، كما تناولت حركات التجديد مطالع القصائد ، والصور البلاغية التي أصبحت متنوعة بتنوع الشخصيات والبيئات والأمصار ، وتناول التجديد أيضًا الموضوعات ، خاصة بعد الصراعات السياسية والمذهبية والمدارس الفكرية التي امتدت أصولها إلى الفقه

والأحكام ووجهة النظر السياسية ، وبعد التأثيرات المتنوعة لقيم الإسلام ومبادئه ، ظهر شعر الزهد والحب العذري ، وفي فترات أخرى شعر اللهو والمجون المنحرف ، الذي كان استجابة لتغيرات جذرية فاسدة تتعلق بالعواطف والعلاقات الإنسانية ، وتناول التجديد أيضًا شكل القصيدة بصفة عامة ، فظهرت المقطوعات والتواشيح والرباعيات وغيرها مما نوع في القافية ، واحتفظ بالوزن ، كما دخلت إلى اللغة ألفاظ جديدة ، واشتقاقات مبتكرة ، رفضها بعضهم وقبلها بعضهم الآخر .

وعلى الرغم من حدوث اضطرابات في القيم والمفاهيم العامة ، إلا أن النغمة الإسلامية لم تخفت أبداً ، كان هناك دائمًا أدباء أوفياء يحرسون التوجه الإسلامي عبر الفنون والآداب ، لا يقعدهم عن ذلك شطط عابث ، أو غواية متحلل فاسد أخضع الكلمة للهوه وشهواته ومجونه ، ولم يكن « فن المديح » كله تأليهاً وتنزيهاً لأمراء وحكام وقادة ، بل حفل هذا الفن بالكثير من التغني بقيم الحضارة الإسلامية ومجدها ، وبعظمة الرجال الأبرار الذين استطاعوا أن يملأوا الأرض عدلاً ورفاهية وسعادة .

والأدب الإسلامي في تصورنا عنصر من عناصر الحضارة الإسلامية لا شك فيه ، ولسان من ألسنة الدعوة الإسلامية التي تحرص أول ما تحرص على القدوة والمثل ، وتهتم بالفعل دون أن تهدر قيمة القول ، وقد يختلف بعضهم ـ وهم قلة ـ معنا في هذا التصور ، وردنا على ذلك بسيط غاية البساطة ، ألا وهو أن المعجزة الكبرى في الإسلام هي القرآن . . . الكلمة المنزلة من عند الله ، في إطار من الصدق والجمال

والإعجاز ، كما أن الدعوةإلى الله بنص القرآن الكريم بالحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى : ﴿ ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّك بالحكْمَةِ وآلموعِظَة آلحسَنَةِ وجادِلْهُم بالتي هِيَ أحْسَنُ ﴾ (١٢٥ : النحل) .

وقد تبدو عملية « التنظير » للأدب الإسلامي ميسورة وسهلة لأول وهلة ، وإنها لكذلك بالفعل إذا انصب التنظير على « مضمون » الأدب أو منبعه الفكري ، لكن الأمر سوف تكتنفه الصعوبة إذا ما نظرنا إلى الشكل أو الصور الجمالية لأي فن من فنون الأدب .

التنظير للأدب الإسلامي لا يثير كثير جدل في ناحية المضمون ، لكن الأشكال الفنية التي لا تكاد تستقر على حال ، والتي تختلف فيها الأذواق والأفهام والمناهج الفلسفية هي المشكلة ، بل أكاد أقول هي العقبة التي تعترض طريق الباحثين عن نظرية سوية مقنعة للأدب الإسلامي .

ويجب ألا يتبادر إلى الأذهان أن ذلك أمر موقع في اليأس أو محبط للعزيمة ، فالخلاف حول الصورة الفنية خلاف أبدي حتى بين أبناء المدرسة الأدبية أو الفنية الواحدة ، فضلاً عن أنه من الصعب ، بل يكاد يكون من المستحيل تحديد أبعاد صورة أدبية واحدة لفن من فنون الأدب ، فالقصة يتناولها كل كاتب بأسلوبه وطريقته الخاصة ، ولو كان الأسلوب أو الطريقة واحدة لا نهدم جانب أساسي من عملية الإبداع ، المقلدون وحدهم هم الذين يدورون في إطار الصورة المحددة ، وحتى هؤلاء قد يتجاوزون ـ قليلاً ، أو كثيرًا ـ الحدود المرسومة ، أما خصوصية الكاتب المبدع وتميزه فتجعله ينجب عملاً فنياً مرتبطاً بفكره

وذوقه وإمكاناته الخاصة ، وقد نتصفح عدداً من دواوين الشعراء العموديين مثلاً ، فنجدهم يكتبون وفق قواعد عامة متفق عليها ، لكننا نجد شوقي غير حافظ غير البارودي غير محمد الأسمر غير الجوهري غير الزهاوي أو العقاد وهكذا ، والشيء نفسه بالنسبة لمن يسمون بأعلام الشعر الحديث والشعر الحر ، وإذا انتقلنا إلى المسرح أو القصة القصيرة تواجهنا الحقيقة نفسها التي لا يمكن الهروب منها . ماذا يعني ذلك كله ؟؟

إنه يعني أن قضية الشكل الفني أو الصورة الفنية مفتوحة . .

وحينما أقول مفتوحة !!! لا أعني أنها فوضى . . يتخبط فيها كل من هب ودب . . فهناك أساسيات تتعلق بالقواعد . . قواعد اللغة . . وباستقامة التعبير . . وبالموسيقى في الشعر ، وبالحدث في القصة والمسرحية ، وبالجماليات الأدبية الأخرى من رمز وإيحاء وإشعاع ، وبأمور تخصصية أخرى في شتى ألوان الأدب ، وهذه بدورها ليست قواعد جامدة ، ولكنها خاضعة للمواهب الإبداعية القادرة على الإضافة والتعديل والابتكار .

الشكل الفني مشكلة في مجال وضع النظرية ، لكنها مشكلة ذات طبيعة خاصة ، ويمكن فهمها في إطار التجربة الطويلة ، والتنوع الواسع ، وفي إطار المنطق والمقبول أو المعقول ، وعلى الأدباء الإسلاميين ألا ينزعجوا من مناقشة هذه المشكلة أو يتهربوا منها ، ولنقرر في صلب نظرية الأدب الإسلامي أن الشكل الفني ميراث وتراث ، وأنه